السلوانة الخامسة

obeikandl.com

obeikandl.com

سلوانة الزهد

قال ربنا تقدس اسمه مخاطبا أحلم من استخلفه فى أرضه ، وأعلم من كلفه ما يرتضيه ، الذى كان عاضده على ما يستكفيه وعاصمه فيما يبديه ويخفيه **﴿ولاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾** [طه: ١٣١] . هذا بعد أن خيره أن يكون نبيا ملكا أو نبيا عبدا ، فاختار فقر الملك على غنى الملك ، وأنشدوا فى ذلك :

وقَالَ جبْرائيلُ عَنْ رَبِّه ... خُيِّرْتَ فَاخْتَرْ يَا دَلِيلَ الهُدَى
نُبوَّةٌ فى حال عَبْدِيَّةٍ ... تَحْوى بها القَدْحَ المُعَلَّى غَدَا
أَوْ حَالَ تَمْلِيكٍ يخر العِدَى ... بَينَ يَدَيهِ صِعِقاً سُجَّداً
يَتْبَعُك الأَطْوَادُ مِنْ بَعْدِ مَا ... يُعِيْدُها مُبْدِئُها عَسْجَداً[1]
فَاخْتَارَ مَا يَحْظَى بِهِ آجِلاً ... للَّه أَهْدَى ومَا أَسْعَدَا

خبر نبوى فى زهد الملوك

من حديث ابن مسعود رحمه الله قال : **«إن ملكاً ممن كان قبلكم بينما هو فى ملكه أدركه الخوف من الله سبحانه ، قال : فترك ملكه وخرج حتى أتى النيل فكان على شاطئه يضرب اللبن ؛ يعنى الطوب ويقتات من ذلك ، فسمع الملك الذى كان فى أرضه بخبره فأرسل يقول له : كن بمكانك حتى ألحق بك ، وترك الآخر ملكه ولحق به فكان أمرهما واحدا إلى أن هلكا»** . قال عبد الله بن مسعود : لو كنتُ برملة مصر لأريتكم قبريهما بما نعته لنا رسول الله ﷺ .

ورويناه بلفظ آخر وهو أن عبد الله بن مسعود قال : **«بَيْنَمَا رَجُل فِى مَوْكِبِه، تَذَكَّر فَعَلِمَ أَنْ مَا هُوَ فِيْه مُنْقَطِعُ ، وَأَنَّهُ قَدْ شَغَلَهُ عَنْ عِبَادَةِ الله تَعَالى ، فَانْسَابَ مِنْ قَصره لَيْلاً وصَارَ إلى مَملَكَةِ غَيْرِهِ ، فَأَتى سَاحِلَ البَحْرِ يَضْرِبُ اللَّبِن وَيَغْتَذِى مِنْ ذَلكَ ، فَبلغَ المَلكِ الذى كانَ فِى مَملَكتِه عِبَادتَه فَركِبَ إليه فَسَأَلَهُ عَن حَالِه فَقَالَ لَهُ : أَنَا فُلاَن صَاحِبِ مَمْلَكَةِ كَذَا ، علمْتُ أن ما كنت فيه منقطعا ، وأنه قد شغلنى عن عبادة ربى ، فقال له : ما أنت بما صنعت بأحق**

(١) الأطواد ، مفردها الطود : وهو الجبل . العسجد : الثمين من الجواهر وهو الذهب .

منى ، ثم خلى سبيل ملكه ، وتبعه فكانا يعبدان الله عز وجل وسألاه أن يميتهما جميعا». قال عبد الله بن مسعود : لَوْ كُنْتُ بِمصر لأَرَيْتُكُمْ قَبْرَيهما بِالنَّعْتِ الَّذِى نَعَتَ لَنَا رَسُولُ الله ﷺ .

قال المؤلف : وفيه لفظ غير هذا لم أروه .

منظوم ومنثور من الحكم الزهدية

روى أن سليمان بن عبد الملك[1] قال لعمر بن عبد العزيز[2] رضي الله عنه حين أعجبه ما صار إليه الملك : يا عمر كيف ترى ما نحن فيه ؟ فقال : يا أمير المؤمنين هذا سرور لولا أنه غرور ، ونعيم لولا أنه عديم ، وملك لولا أنه هلك، وفرح لو لم يعقبه ترح[3] ، ولذات لو لم تقرن بآفات ، وكرامة لو صحبتها سلامة .

فبكى سليمان حتى اخْضَلَّتْ[4] لحيته ، ومما قلت فى ذلك :

يا مُتْعَباً كَدَّهُ الحِرْصُ فى الوُصُول وكَادَهُ
لَوْ حُزْتَ مَا حَازَ كِسْرَى وَمَا حَوَى وأَفَادَهُ
مَا كُنْتَ إلاَّ مُعَنًّى ومُعْدَمًا بالمَادَهْ
لَمْ يَصْفُ فى الأَرْض عَيْشٌ إلاَّ لأَهْل الإِرْدَاةِ
فَرُضْ عَلَى الزُّهْدِ نَفْساً فَإِنَّمَا الزُّهْدُ

---

(١) سليمان بن عبد الملك : ابن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية ، الخليفة أبو أيوب القرشى الأموى ، بويع بعد أخيه الوليد سنة (٨٦هـ) . وكان له دار كبيرة مكان طهارة جيرون ، وأخرى أنشأها للخلافة بدرب محرز ، وعمل لها قبة شاهقة صفراء وكان ديناً فصيحاً مفوهاً عادلاً محباً للغزو ، يقال : نشأ بالبادية . مات بذات الجنب ، ثم كفن فى عاشر صفر سنة (٩٩هـ) وصلى عليه عمر بن عبد العزيز . سير أعلام النبلاء (٦٧٣)

(٢) عمر بن عبد العزيز : ابن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى بن كلاب ، الإمام الحافظ العلامة المجتهد الزاهد ، العابد السيد ، أمير المؤمنين حقاً أبو حفص ، القرشى الأموى المدنى ثم المصرى ، الخليفة الزاهد الراشد أشج بنى أمية ، وكان من أئمة الاجتهاد ، ومن الخلفاء الراشدين رحمه الله عليه ، كان حسن الخلق والخلق ، كامل العقل ، حريصا على العدل بكل ممكن ، مناقبه رضي الله عنه كثيرة جداً جداً مات سنة (١٠١هـ) . سير أعلام النبلاء (٦٧٥) .

(٣) أى حزن .

(٤) أى ندت وابتلت .

عَـــــادَةَ[٥]

حذار حذار من دار هى شر دار ؛ حرامها سم ناقع وعذاب واقع ، وحلالها نصب واسع وأمل شاسع :

دُنْيـــــاكَ دَارُ غُـــــرُور ... ومُتْعَـــــةٍ مُستَعَـــــارَةٌ[٢]
ودَارُ كَسْـــــبٍ وكَيْـــــس ... ومغْنَـــــم وتِجَـــــارةٍ
ورَأْسُ مَـــــالِكَ نَفْـــــسٌ ... فَـــاحْذَر عَلَيْهَـــا الخَسَـــارَةَ
وَلاَ تَبعْهَـــــا بأَكْـــــل ... وَطِيـــبِ عُـــرْفٍ وشَـــارَةٌ[٣]
فَـــــإنَّ مُلْـــكَ سُلَيْمَـــــانَ ... لاَ يَفـــــى بشَـــــرارَة

ومن قصيدة لىّ فى مثله :

فأنـــا بـــدَار تُـــرْدِى مُجَاريهَـــا ... وتُخْفِـــرُ الآل فـــى مَوادِعِهَـــا[٤]
وَتَسْـــتَفِزُّ الحَلِيـــمَ عَـــن سُـــنَن ... القَصْـــدِ وتُغْـــى عَلَـــى مُخَادِعِهَـــا
مَـــنْ رَام إبْقَاءَهَـــا عَلَيـــهِ فَقَـــدْ ... حَـاوَلَ مَـــا لَيْـــسَ فـــى طَبَائِعِهَـــا
أَسْـــرَعُ مـــا تَنْتَحِـــى بَوَائِقُهَـــا ... يَومـــاً إذَا اسْـــتَجْمَعَتْ لِجَامِعِهَـــا[٥]
فَتِـــه عَلَيْهَـــا وَارْبَـــأْ بنَفْسِـــكَ عَـــنْ ... طِلاَبِهـــا واقْتِفَـــاء تَابِعِهَـــا[٦]
واشْـقُقْ عَصَـا بَيْعِـه الغـرور لَهـا ... وانْبُـذْ صُرَاحـاً إلـى مُبَايِعِهَـــا[٧]
عَمْـــرى لَقَـــدْ أَنْـــذَرْتُ مُنْـــذِرَةٌ ... فَاجِعَـــةَ نُصْحُهَـــا لسَامِعِهَـــا
مُؤْذِنَـــــةٌ أَنَّهـــــا مُؤَدِّيَـــــةٌ ... لِسَـــاعَةٍ آهٍ مِـــنْ قَوارِعِهَـــا[٨]
فَالأَمْـــنُ والله مِـــنْ فَجَـــائِعِهَـا ... يَضْمَنُـــه الزُّهْـــدُ فِى مَطَالِعِهَـــا

ومن ذلك :

راعَـكَ الزهـدُ إنَّمـا الزُّهْـدُ رفـضٌ ... لفضُـــول يُلهـــى ويُطْغِـــى ويُـــرْدى
ثُـــمَّ لا تمكـــنُ الزهـــادةُ فـــى المقـــ ... ـــسوم حتما بل فى ضـــروبِ التَّعـــدى
مرحبـــاً بالكفـــافِ عفـــوا هنيئـــا ... ثـم لا مرحبـــا بحـــرص وكـــدّ[٩]

---

(٥) رض : طَوّع .
(٢) مستعارة : مسترضة .
(٣) شارة : اللباس والزينة .
(٤) تردى : تهلك . تخفر : نقض العهد والغدر .
(٥) البوائق ، مفردها البائقة : وهى الشر .
(٦) فَتِه : ترفع . ارْبَأْ : اعلُ وارتفع .
(٧) الصراح : آنية الخمر .
(٨) القوارع : نوائبها ونوازلها .
(٩) الكفاف : مقدار الحاجة بدون زيادة أو نقصان .

هَـا عَلِمْنَـا وقَـدْ رَأَيْنَـا كَثِـيراً وسَـمِعْنَا مَـنْ حَـازَ جَـدًّا بجَـدِّ
لا يَزَالُ الحَرِيصُ يَسْتَامَـهُ الْحِـرْ صُ بنُصْبٍ مِنَ الشَّقَـاء وَنَكْدِ[١٠]
ثُـمَّ لاَ يَسْتَطِيـعُ أَنْ يَتَعَـدَّى قَـدْراً مَـا لِحَتْمِـهِ مِـنْ مَـرَدِّ

قيل : إن حرقة بنت أبى قابوس ؛ النعمان بن المنذر[١] استأذنت بالقادسية[٢] على سعد بن أبى وقاص[٣] رضي الله عنه ، فأذن لها ودخلت فى جواريها وعليهن المسموح ومقطعات السلب السود[٤] ، فرأى منظرا شنيعاً ولم تتميز له حُرقة من جواريها لمشاركتها إياهن فى الزى ، وكن رواهب فسلمن عليه ، فقال : أيتكن الحرقة ؟ فقالت الحرقة : هأنذا ذيه . فقال : أأنت حرقة ؟ .

قالت : نعم فما تكرارك استفهامى أيها الأمير ؟ إن الدنيا دار قلعة وزوال ، فما تدوم على حال ، تنتقل بأهلها انتقالا ، وتعقبهم حالا ، وإنما كنا ملوك هذه الأرض ، يجبى إلينا خراجها ، ويطيعنا أهلها مدى المدة وزمان الدولة ، فلما أدبر الأمر صاح بنا صائح الدهر ، فصدع عصانا ، وشتت ملانا ، وكذا الدهر يا سعد، إنه ليس من قوم أتحفهم بحبرة[٥] إلا أردفهم بعبرة[٦] ، ولا أسعفهم

---

(١٠) يستامه : يحكمه ويصرفه .

(١) النعمان بن المنذر : أشهر ملوك الحيرة وآخرهم ، مدحه الشاعر النابغة الذبيانى كثيراً ، عرف بأبى قابوس . البداية والنهاية (١٨٥/٢) .

(٢) القادسية : موقع فى العراق غربى النجف ، واسم معركة المسلمين والفرس فى أيام عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، فى سنة (١٦هـ) وقاتل المسلمون يومئذ قتالاً عظيماً وانتصروا فيها. معجم البلدان (٩٣٥٠) .

(٣) سعد بن أبى وقاص : الأمير أبو إسحاق القرشى الزهرى المكى ، أحد العشرة ، وأحد السابقين الأولين ، وأحد من شهد بدراً والحديبية ، وأحد الستة أهل الشورى ، وأول من رمى بسهم فى الإسلام ، وكان جيد الرمى . ومن مناقبه : أن فتح العراق كان على يديه، وهو كان مقدم الجيوش يوم وقعة القادسية ، ونصر الله دينه ، ونزل سعد بالمدائن ، ثم كان أمير الناس يوم جلولاء ؛ فكان النصر على يده ، واستأصل الله الأكاسرة . ومات سنة (٥٥هـ) . سير أعلام النبلاء (٥) .

(٤) المسموح : يلبس من نسيج الشعر على البدن تقشفاً وقهراً . السلب : ثياب المأتم السود .

(٥) النعمة والعطية والسرور .

بفرحة إلا أعقبهم بترحة ، ثم أنشدت :

فَبَيْنَا نَسُوسُ النَّاسَ والأَمْرُ أَمْرُنَـا إِذَا نَحْنُ فِيْهِـم سُـوقَةُ نَتَنَصَّـفُ
فَأُفٍّ لِدُنْيَـا لاَ يَـدُومُ نَعِيمُهَـا تَقَلَّـبُ تَارَاتٍ بِنَـا وتَصَـرَّفُ

وبينما الحرقة تخاطب سعدا رضي الله عنه ، دخل عمرو بن معدى كرب[1] الزبيدى على سعد فنظر إلى الحرقة فقال لها : أنت حرقة التى كانت يفرش لك الأرض من قصرك إلى بيعتك بالديباج[2] المبطن بالوشى[3] ؟ قالت : نعم ، فقال لها عمرو : فما الذى دهمك ، وأذهب محمودات شيمك ، وغور ينابيع نعمك، وقطع سطوات نقمك ؟ .

فقالت : يا عمرو إن للدهر عثرات تلحق السيد من الملوك بالعبد المملوك ، وتخفض ذا الرفعة وتنزل ذا النعمة ، وإن هذا أمر كنا ننظره ، فلما نزل لم ننكره.

ثم إن سعدا سألها عما قصدته فاستوصلته ، فأجزل صلتها وقضى حوائجها ، ولما فصلت عنه سئلت ماذا لقيت ؟ فأنشدت :

صَـانَ لِى ذِمَّتِى وأَكْـرَمَ وَجْهِـى إِنَّمَـا يُكْـرِمُ الكَرِيْـمَ الكَرِيْـمُ

روضة رائقة ورياضة فائقة

قال محمد عفا الله عنه : نذكر إن شاء الله من زهد الملوك ما يناسب الخبر النبوى الذى قدمناه آنفا ، وهو زهدهم فى الملك ، مع نبذهم له وتخليهم عنه ، ولا نعرض لذكر من زهد فى نعيم الملك ولم ينبذه ؛ لاستقلاله بأعباء سياسة الخلق بالحق، وأعباء الزهادة والعبادة مع ذلك ، كداود وسليمان والنبيين

---

(٦) الدمعة من الحزن والبكاء .

(١) عمرو بن معدى كرب : شاعر وفارس مخضرم ، أسلم وارتد ثم أسلم مرة أخرى وقد شهد موقعة القادسية . معجم البلدان (٤٠٣٩) البداية والنهاية (٣٩/٧ ، ٤٦) .

(٢) الديباج : كلمة فارسية وهو الثوب الحرير .

(٣) الوشى ، مفردها وشاء : وهو نقش الثياب .

obeikandl.com

عليهم السلام ، وكأبى بكر[1] وعمر فى الخلفاء المهديين ، فإن هذا الفن يخرج عن هذا التبويب ولا يندرج فى هذه الأساليب .

فمن ذلك ما بلغنى أن معاوية بن معاوية رحمه الله كان على صغر سنه عالما عاملا ، متبتلا متقللا ، قد ذلل نفسه بالتقوى وعدل بها عن زينة الدنيا ، أفضت الخلافة إليه وسنه سبع عشرة سنة ، فخامره[2] الندم على تحملها ، وأطلع أهل بيته على ذلك، فكرهوه ، ولبثوا عشرين ليلة يناظرونه فيه وينهونه عن إظهار كراهيته له .

فلما رأوا أنه غير منته ، وأنه لابد له من خلع نفسه ، دعوه إلى أن يعهد إلى أحد منهم ، فقال : كيف أتجرع مرارة فقدها وأتقلد بيعة عهدها ، ولو كنت مؤثراً بها أحدا لآثرتُ نفسى .

ثم إنه خطب الناس ، فذكر لهم عجزه عن القيام بأمرهم وعهد إليهم أن ينظروا لأنفسهم ، وأحلهم من بيعته وانصرف ، فأغلق بابه ولم يأذن لأحد ، فلبث بذلك خمسا وعشرين ليلة ثم لحق بالله تعالى .

وقال على بن الجهم[3] فى ذلك من أرجوزة تاريخية :

ثم ابنُهُ مُعيَّة المُضْنِفُ ... كَانَ لَه دِينٌ وعَقْلٌ يَعْرِفُ
ودَامَ شَهْراً ثُمَّ نِصْفَ شَهْرِ ... وجَاءَهُ المَوْتُ عَزِيزَ الأَمْرِ
وتَرَكَ النَّاسَ بِغَيْرِ عَهْدِ ... تَوَقِّياً مِنْهُ وفَضْلَ زهدِ[4]

قال محمد : كلام على بن الجهم هذا يتضمن أن معاوية مات ولم يخلع نفسه، والمعروف ما ذكرته ، وإنما قال معية ؛ لأن الناس استضعفوه لتركه الخلافة ، ولذلك كنوه أبا ليلى وهى كنية المستضعف ، وبلغنى أن الأمر الباعث

---

(١) أبو بكر الصديق : عبد الله بن عثمان ، أبو قحافة ، خليفة رسول الله ﷺ . الإصابة (٩٦٣٦) أسد الغابة (٥٧٣٧) الاستيعاب (٢٩١٧) .

(٢) أى داخله وخالطه .

(٣) على بن الجهم : شاعر عباسى معاصر لأبى تمام كان فى زمن المتوكل على الله ، ومدحه وأجزل إليه المتوكل العطاء الكثير . البداية والنهاية (١٠/٣٦٥) .

(٤) توقياً منه : أى خوفاً منه .

obeikandl.com

له على الزهد فى الخلافة والنبذ لها ؛ أنه سمع يوما جاريتين له تتلاحيان[1] وكانت إحداهما بارعة الجمال ، فقالت الأخرى : لقد أكسبك جمالك كبر الملوك ، فقالت لها الحسناء : وأى ملك يضاهى ملك الحسن وهو قاض على الملوك ، فهو الملك حقا؟ .

فقالت لها الأخرى : وأى خير فى الملك وصاحبه إما قائم بحقوقه وعامل بالشكر فيه ، فذلك مسلوب اللذة والقرار ، منغص العيش، وإما منقاد لشهواته موثر للذاته ، مضيع للحقوق ، مضرب عن الشكر ، فمصيره إلى النار ؟ فوقعت الكلمة من نفس معاوية موقعاً مؤثراً ، وحملته على الانخلاع عن الإمرة

روضة رائقة ورياضة فائقة

قيل : كان عدى بن زيد العبادى التميمى[2] ، قد دخل بلاد الروم رسولا لملك الفرس ، فاقتبس من علومهم ، وقرأ الكتب ، وكان ذا مكانة من ملك الفرس وكاتبا وترجمانا ، وكان أبوه زيد واليا على الحيرة[3] ، وخليفة المنذر بن ماء السماء[4] ، فكان عدى بن زيد عند ملوك الحيرة من لخم[5] ؛ لأجل ما ذكرناه فى أعلى المراتب.

قالوا : حضر يوما عند النعمان بن امرىء القيس بن عدى ملك الحيرة وهو بالخورنق ، والخورنق قصر قد قدمنا ذكره ، فأشرف النعمان على ما حول الخورنق وذلك فى فصل الربيع ، فتأمل ملياً ، ثم أقبل على عدى بن زيد ،

---

(١) أى تتشاتمان وتتلاومان .

(٢) عدى بن زيد العبادى : ابن الحمار التميمى النصرانى ، جاهلى ، من فحول الشعراء ، وهو أحد الفحول الأربعة الذين هم : هو وطرفة بن العبد وعبيد بن الأبرص وعلقمة بن عبدة . وقال الحافظ الذهبى : ذكرته للتمييز . سير أعلام النبلاء (٦٧٢) .

(٣) الحيرة : مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له النجف وبالحيرة الخورنق بقرب منها ، وكانت مسكن ملوك العرب فى الجاهلية من زمن نضر ثم من لخم النعمان وآبائه . معجم البلدان (٤٠٣٩) .

(٤) المنذر بن ماء السماء : هو ابن امرئ القيس بن النعمان ، وماء السماء هى أمه ، وكانت تسمى مارية . وهو من ملوك اليمن ، ودُعى ذو القرنين . مفاتيح العلوم (٦٩) .

(٥) لخم : قبيلة عربية قحطانية ، سكنت شمال شرق الجزيرة العربية ، وهى أساس دولة المناذرة الذين استوطنوا الحيرة . معجم البلدان (١٤٠/٣) .

obeikandl.com

فقال: يا عدى أكل ما أرى إلى نفاد وزوال ؟ .

فقال عدى : قد علم الملك أن الأمر على ما ذكره .

فقال النعمان : وأى خير فيما يفنى ويبيد ؟ ثم قَلَّ ما لَبِثَ أَنْ تَنَصَّرَ وتَرَهَّب وساح فى الأرض .

وقيل : بل كان معجبا بالزهر المسمى شقائق النعمان[١] وإليه ينسب ؛ لأنه كان يمنع رياضه ويحميه ، وأنه قصد يوما من أيام الربيع غب سماء[٢] شقيقة قد كساها ذلك النَّوْرُ ، والشقيقة : رملة مستطيلة ؛ فلما عاين تنضد[٣] ذلك النور فى منابته ، وقُنُوَّ حمرته[٤] ، وخضرة سوقه ، وتموجه بهبوب النسيم عليه ، وتناثر قطر الندى من أرجائه ، رأى منظرا بهيجاً ، فأمر فبسط له بإزاء تلك الشقيقة بساط موشى بالحرير فكأنما كان روضة مختلفة بأصناف الزهر ، ونصبت عليها قبة من الديباج الأحمر قد شحنت من المقاعد والحشايا والنمارق[٥] والمساند بما يضاهيها ويجانسها ، ولبس من الحرير المصبوغ بالبهرمان ، وهو المعصفر[٦] أفضل ما يمكنه ، وجلس فى قبته تلك مواجها للشقيقة ، وحوله ندماؤه وملهوه وعنده عدى بن زيد ، فشرب وطرب ودبت فيه الراح[٧] فارتاح .

ثم أقبل على عدى فخاطبه بما ذكرناه آنفا ، فلما سمع عدى مقالته اهتبل فرصته ، فراجعه بما ذكرناه ، وأزمع الزيادة فى إيقاظه من غفلته ، فأمهله حتى انقضى أربه من مجلسه ذلك ، وركب فسايره عدى إلى أن مر بقبور بظاهر الحيرة.

فقال عدى : إنها تقول : أيها الركْبُ المخنون[٨] على الأرض المجدون ،

---

(١) شقائق النعمان : هى زهور ربعية ذات لون أحمر جميل .

(٢) أى ينظر إلى سماء الزهرة .

(٣) أى ظهر ولمع .

(٤) أى سواد حُمرته من شِدَّتها .

(٥) النمارق ، مفردها النمرق : وهى الوسادة الصغيرة يتكأ عليها .

(٦) أى بصبغة صفراء اللون .

(٧) الخمر .

(٨) الغافل فاقد الوعى .

كما أنتم كنا وكما نحن تكونون .

فلما سمع النعمان مقالته راجعته فكرته السالفة ، وظهر عليه الانكسار ، ثم مر بشجرات متناوحات[١] ، بينهن ساحة فيها عين جارية ، فقال عدى للنعمان : أتدرى ما تقول هذه الشجرة أبيت اللعن ؟ فقال لا ، ما تقول ؟ .

فقال عدى : إنها تقول :

مَنْ رَآنَا فَلْيُحَدِّثْ نَفْسَهُ ... أَنَّه مُوْقِفٍ على قَرْنِ الزَّوَالْ[٢]
وصُرُوفُ الدَّهْرِ لاَ يَبْقَى لَهَا ... ولَما تَأْتِي به صُمُّ الجبَالْ
رُبَّ رَكْبٍ قَد أَنَاخُوا حَوْلَنَا ... يَشْرَبُونَ الخَمْرَ بالمَاءِ الزُّلاَلْ[٣]
والأَبَارِيقُ عَلَيْهَا قِدَمٌ ... وعِنَاقُ الخَيْلِ تزهو فى الجَلاَلْ
عَمَّرُوا دَهْراً بعَيْشٍ حَسَنٍ ... آمِنِى دَهْرهم غَيْرَ عِجَالْ
ثُم أَضْحَوا عَصَفَ الدَّهْرُ بهمْ ... وكَذَاكَ الدَّهْرُ يُرْدِى بالرِّجَالْ
وكَذَاكَ الدَّهْرُ يُودِى بالْفَتَى ... فى طِلاَبِ العَيْشِ حَالاً بَعْدَ حَالْ[٤]

ويُقال:إن ذلك كان بينهما فى موطن آخر وإنه إنما أشار به إلى قبور كما أشار له أولا.

قيل : فلما بلغ النعمان قصره قال لعدى : إذا كان السحر فاحضرنى فإن عندى خبرا أطلعك عليه ، فلما كان السحر حضر عنده ، فوجد النعمان قد لبس مسحا[٥] ، وأخذ أهبة السياحة ، فودعه وذهب ولم يعلم له خبر .

وعندى أن المترهب السائح هو النعمان بن المنذر الأكبر ، ولم يدركه عدى؛ ولكن ذكره فى شعره ، والذى أدركه النعمان بن المنذر الأصغر ، وأن عديا نبهه بما حكى عنه تنبيها اقتضى تنصره لا سياحته ، بل هو الذى قتل عديا وبقى فى ملكه إلى أن قتله كسرى ، والله أعلم أى ذلك كان .

وبالجملة ففى ذلك قال عدى بن زيد :

أَيُّهَا الشَّامِتُ المُعَيِّرُ بالدَّهْرِ ... أَأَنْتَ المُبْرِأُ المَوْقُورُ
أَمْ لَدَيْكَ العَهْدُ الوَثِيقُ مِنَ الأَيَّامِ ... أَمْ أَنْتَ جَاهِلٌ مَغْرُورُ
مَنْ رَأَيْتَ المَنُونَ أَخْلَدْنَ أَمْ مَنْ ... ذَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُضَامَ خَفِيرُ[٦]

---

(١) متقابلات .
(٢) قرن الزوال : أى على أهبة الرحيل .
(٣) أناضوا : أقاموا بالإبل فى مكان ما وأبركوها . الزلال : الماء العذب الصافى .
(٤) الودى : الهلاك .
(٥) المسح : كساء من الشعر يلبس للدلالة على التقشف والزهد .
(٦) المنون : الموت لأنه ينقص العدد ويقطع المدد .

أَيْنَ كِسْرَى كِسْرَى الملـوك أَنُوشِـرْ ... وانَ أَمْ أَيْـنَ قَبْلَـهُ سَابُـورُ
وَبَنُـو الأَصفرُ المُلـوكُ مُلُـوكُ الـ ... ـرُّوم لَـمْ يَبْـقَ مِنْهُـم مَذْكُـورُ
وأَخُـوكَ الحِصْـنُ إِذْ بَنَـاهُ وإِذْ دِجْلَـةُ ... تُجْبَـى إِلَيْـهِ والخَـابُـور[٧]
شَـادَهُ مَرْمَـراً وجَلَّلَـه كَلْـ ... ـساً فَلِلطَّـيْرِ فِـي ذُرَاهُ وكُـورُ[٣]
لَـمْ يُهبْـهُ رَيْـبُ المَنُـون وبَـادَ الـ ... ـمُلْـكُ عَنْـه فَبَابُـه مَهْجُـورُ
وَتَذَكَّـرَ رَبَّ الخُوَرْنَـقِ إِذْ أَشْـ ... ـرَفَ يَوْمـاً ولِلْهُـدَى تَبْصِيْـرُ
سَـرَّهُ مَالُـهُ وكَـثْرَةُ مَـا يَمْـ ... ـلِكُ والبَحْرُ مُعْرِضٌ والسَّـدِيرُ[٤]
فَـارْعَوى قَلْـبُه وقَـالَ ومَـا غِبْـ ... ـطَةُ شَيْءٍ إِلَى المَمَـاتِ يَصِيْرُ[٥]
ثُـمَّ بَعْـدَ العُـلاء والمُلْـكِ واللاَّ ... ـمَـةِ وَارَتْهُـم هُنَـاكَ القُبُـورُ
ثُمَّ صَـارُوا كَأَنَّهُـم وَرَقٌ جَـفَّ ... فَأَلْـوَتْ بِـهِ الصَّبَا والدَّبُـورُ[٦]

روضة رائقة ورياضة فائقة

حكى أن ملكا من اليونانيين قام من منامه فى بعض الغدوات ، فأتته قيمة ملبسه بثيابه فلبسها ، ثم ناولته المرآة فنظر فيها فرأى شيبة فى لحيته ، فقال : هات المقراض[٥] يا جارية ، فأتته به فقص الشيبة ، فناولها الجارية ، وكانت لبيبة أديبة، فوضعتها فى كفها وأصغت إليها بأذنها ساعة ، والملك يتأملها فقال لها : ما تصغين ؟ .

فقالت : استمع إلى ما تقول هذه الشعرة التى عظم مصابها بمفارقة الكرامة العظمى حين سخطها الملك فأقصاها .

---

(٧) دجلة : نهر بغداد بالعراق . معجم البلدان (٤٧٠٩) . الخابور : مدينة لطيفة على شاطىء الفرات لها بساتين وحدائق ، وبها مات مسلمة بن عبد الملك ، وكان يلقب بالجرادة الصفراء . وقيل : هو اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة ولاية واسعة وبلدان جمة غلب عليها اسمه فنسبت إليه من البلاد قرقيسياء وماكسين والمجدل وعربان . معجم البلدان (٤٠٥٥) الروض المعطار (٢١١) .

(٣) الكلس : ما يقوم به الحجر والرخام ونحوهما .

(٤) السدير : نهر بناحية الحيرة . وقيل : قصر قريب من الخورنق كان النعمان الأكبر اتخذه لبعض ملوك العجم . معجم البلدان (٦٣٢٥) .

(٥) ارعوى : رجع عن الجهل .

(٦) الصبا : ريح شرقية لطيفة يحبها العرب . والدبور : ريح غربية مقابلة لريح الصبا .

(٥) المقراض : وهو ما يقطع به ، وهو شفرتان ، أى المقص .

فقال لها الملك : فما الذى سمعت من قولها ؟

فقالت : زعم قلبى أنه سمعها تقول كلاما لا يجترىء لسانى على النطق به لاتقاء سطوة الملك .

فقال لها : قولى على حال أمنة وعدم تَوَقٍّ ، ما لزمت أسلوب الحكمة .

فقالت : إنها تقول : أيها الملك المسلط إلى أمد قصير ، إنى كنت ظننت بك البطش بى والاعتداء على ، فلم أظهر على سطح جسدك حتى بضت ، وحضنت بيضى حتى أفرخن ، وعهدت إلى بناتى فى الأخذ بثأرى عهدا ، وكأن قد خرجن فجعلن الأخذ بثأرى منك إما باستئصالك ، وإما بتنغيص لذتك وتحيف قوتك حتى تعد الهلاك راحة .

فقال لها : اكتبى كلامك هذا ، فكتبته له فتصفحه مرارا ، ثم نهض مبادرا فأتى هيكلا[1] من الهياكل التى يعظمونها ، فنزع عنه ملبس الملك فتزيا بزى النساك.

وبلغ ذلك أهل مملكته ، فبادروا إليه ، وطلبوه بالعود إلى محل ملكه وتدبيره، فامتنع عليهم وسألهم إقالته وتمليك غيره ، فامتنعوا عليه وهموا بامتحانه ، فأصلح بينهم النساك على أن يتركوه فى ذلك الهيكل يعبد ربه ، ويستكفى لما يستشار فى مثله من أمور رعيته ، ويلى غيره ذلك بنفسه ، فلبث على ذلك إلى أن هلك .

روضة رائقة ورياضة فائقة

بلغنى أن ملكا من ملوك اللان[2] كان كافرا شديد العتو والكبر ، حديث السن مستحكم الغرة ، وكان إذا ركب لم يستطع أحد أن يرفع صوته إلا بالثناء عليه والمدح له والشكر لإحسانه ، وكان له وزير نصرانى مؤمن يكتم إيمانه، ويتحين وقتا يمكنه فيه دعوة ذلك الملك إلى الله .

فركب الملك يوما فسمع شيخا قد رفع صوته لبعض شأنه ، فقال للشرطة : خذوه ، فلما أخذوا الشيخ قال : ربى الله .

فقال الوزير للشرطة : خلوا عنه ، فخلوا عنه ، فاشتد غضب الملك على

---

(١) موضع فى صدر الكنيسة يقرب فيه القربان ، وهو التمثال .

(٢) اللان : بلاد من الصين .

obeikandl.com

وزيره ولم يمكنه الإنكار عليه فى ذلك المقام ؛ لئلا يظهر للناس أن الوزير يخالفه فيما يأمره به ، وسكت ليوهم الناس أن الوزير إنما أمر بما أراده الملك .

فلما انصرف الملك إلى مستقره أحضر الوزير فقال له : ما دعاك إلى مناقضة أمرى بمشهد من عبيدى ؟

فقال له الوزير : إن لم يعجل الملك أريه وجه نصحى وإشفاقى ، وحوطتى عليه فيما أتيته .

فقال له الملك : فإنى لا أعجل عليك .

فقال : أريد أن يحتجب الملك فى مجلسه هذا ويكون بحيث يرى ويسمع من حجابه . ففعل الملك ذلك ، ثم إن الوزير أحضر قوسا صنعها للملك بعض خدمته وكتب الصانع اسم نفسه عليها ، فناولها غلاما بحضرته ، وقال للغلام : إنى محضر صانع هذه القوس فإذا حضر وأقبلت عليه بالمحادثة ؛ فاقرأ الاسم الذى على القوس جهرا ؛ حتى تعلم أن صانعها قد سمعك ثم اكسرها .

وحضر القواس وفعل الغلام ما أمره به الوزير ، فلما كسر القوس لم يتمالك صانعها أن ضرب الغلام فشجه[1] .

فقال له الوزير: ويحك أتضرب غلامى بحضرتى ؟ فقال القواس : إن القوس عملى أيها الوزير ، وهى فى غاية من الحسن والجودة فلأى شىء كسرها؟

فقال الوزير : لعله لم يعلم أنها عملك ، فقال : بلى ، لقد أخبرته بأنها عملى.

فقال الوزير : كيف تخبره ؟ فقال : هذا خطى يدلك عليها ، وقد قرأه وأنا أسمعه ، فصرف الوزير القواس ، ثم أقبل على الملك فقال له : قد رأيت وجه نصحى وإشفاقى عليك بما كان منى ، وإن الملك لما أراد أن يسطو على الشيخ أخبره الشيخ أن الله ربه ، فخفت على الملك أن يبطش به رب الشيخ وليس يقوم لبطشه شىء ، فقال الملك : وهل للشيخ ربٌ غيرى ؟ فقال الوزير : ألم يره

---

(١) جرح رأسه وكسرها .

الملك شيخا والملك شاب ؟ فهل كان هذا الشيخ قبل أن يولد الملك لا رب له ؟

فقال الملك : لا ، بل كان أبو الملك ربه .

فقال الوزير : فما بال المربوب بقى بعد هلاك ربه ؟ .

فقال الملك للوزير : قد قدحت فى كبدى بزند غير صالدة[1] ، ولقد علمت الآن أنه يجب أن يكون للملك أو المملوك رب لا يزول ؛ فهل تعرفه وتدلنى عليه؟

فقال الوزير : نعم إنى أعرفه ، فقال الملك : دلنى عليه أكن لك تبعا ما بقيت.

فقال الوزير : أما دلالتك عليه فأول ما يجب لك على ، وأما اتباعك لى فلئن فعلته فإنما تتبع عبدك الذى يقيك بمهجته ما يريبك ، ثم إن الوزير تلطف فى دلالته على الله سبحانه ، وشرح الله صدر الملك لقبول ذلك ؛ فآمن بالله سبحانه.

ثم قال الملك : أما لربنا خدمة إذا أحسنها عبده حظى بذلك عنده ؟ فقال له الوزير : بلى إن له وظائف عبادة أمر بها خلقه ورضى لهم فعلها ، ووعدهم عليها رضوانه والقرب منه والكرامة ، وذكر له الصلاة والصيام وغير ذلك من شرائع المسيح عيسى عليه السلام ، فجعل الملك يرتاض بها حتى رسخ فى علمها ، وتمرن على العمل بها .

ثم إنه قال للوزير : مالك لا تدعو الناس إلى الله كما دعوتنى ؟ فقال له : أيها الملك إن اللان أمة ذات قلوب قسية ، وفهوم قصية[2] ، ونفوس عصية ، ولست آمنهم على دمى إن تَفَوَّه لهم بذلك فمى ،

فقال الملك : إنى فاعل ذلك إن لم تفعله أنت ، فقال له الوزير : ليعلم الملك أنهم إن لم تردهم هيبته عنى لم تردهم عنه ، وسأجعل نفسى وقاءً لنفسه ، وأنهم سيقتلونى لا محالة ، فلا يجترىء الملك بمثلها بعدى .

ثم إن الوزير استدعى إلى داره وجوه تلك المملكة وذوى تدبيرها، وولاة

---

(١) الزند الذى لا يورى ناراً . أى غير صائبة .

(٢) أى بعيدة .

أحكامها وأهل النسك والحلم منها ، فلما اجتمعوا إليه فى داره ، قام فيهم خطيبا بالدعوة إلى الله سبحانه ، فثاروا إليه فقتلوه، وصاروا إلى الملك فأخبروه بما كان من الوزير ومنهم ، وقالوا له : إنا ظننا أن الملك على مثل رأيه ويجب معرفة ما عنده ، فأرضاهم بالقول ، وأدهن لهم وصوب رأيهم فى قتل الوزير ، فانصرفوا راضين عنه ، وقل ما لبث ذلك الملك أن نبذ ملكه ولحق بالرهبان فكان معهم إلى أن توفاه الله عز وجل .

روضة رائقة ورياضة فائقة

قيل : إن أزدشير بن بابك بن ساسان ولد له ـ فى حداثة سنه وبدء أمره ـ ولد فسماه بابك باسم أبيه ، فنشأ رائع الصورة بارع الجمال ، فشغف به أزدشير حبا، وألزمه فيلسوفا ماهرا فى الفلسفة راسخا فى الحكمة متحليا بالزهادة ، وسأله أزدشير أن يتخذه ولدا ، فاقتطعه الفيلسوف عن أبويه ، وولى تربيته وتدريجه ، إلى أن اضطلع بأعباء علوم الفلاسفة وتبوأ مثوى الزهد .

ولما سعى أزدشير لضم كلمة الفرس ، فتم له المراد وأعضاه الطوائف القياد، استمد رأى ولده بابك فيما نابه من المهمات ، فظفر منهم بأضعاف أمنيته ، إلا أنه كان لا يشاهده ويشافهه إلا بغض إليه الدنيا تصنيفا لمعايبها ، وتعريفا بشوائبها، وتخويفا من عواقبها ، فكان أزدشير منغص المسرة بولده لأجل ذلك .

وكان يقال : من صحب الملوك بما يكرهونه فلا ينكر هوله .

وكان يقال : قل ما يتوفر فكر الملك على أمر واحد حتى تطول عنايته به على انفراده ، وذلك لكثرة ما تتجاذب خواطره من الأمور حتى إذا توفر فكره على أمر وأجمع له ، أوشك أن يحكمه ، فإذا رأيته أجمع على أمر وتوفر عليه ، فلا تعرض له بغيره فتحول بينه وبين الفرصة التى بها ظفره .

قيل : وكان أزدشير يحتمل ذلك لولده شغفا به وتألفا عليه ، فقال يوما : يا بابك أتعرف أباك ؟ قال بابك : إن لى أيها الملك السعيد أبوين ، أبا كان علة كونى ، وأبا كان علة بقائى ، وأنا بهما عارف .

فقال له أزدشير : صف لنا أباك الذى كان علة كونك .

فقال بابك ما معناه : إنه ملك ملأ العيون فهما ، والأسماع ثناء ، والصدور

هيبة ، والقلوب محبة ، ذو رأفة شاملة وقضية فاضلة ، وسيرة عادلة ، وحزم أخاف قلوب المربيين فى أجسادها كسيوفهم فى أغمادها ، وأمن المربيين بين السباع الضارية والأفاعى الجارية ، فالأشباح[1] رق لسيفه وحزمه ، والأرواح رق لسيبه[2] وحلمه .

فقال أزدشير لابنه بابك : صف لى أباك الذى كان علة لبقائك .

فقال بابك ما معناه : إنه حكيم عرف فضيلة نفسه ، فكرمها وعنى بها، فخدمها .

فقال أزدشير : أخبرنا عن كيفية خدمته لنفسه .

فقال بابك ما معناه : إنه تأمل نفسه فرآها أرضا أريضة أنيقة ، بكل خير خليقة ، ذات مياه نابعة وأشجار كارعة[3] وثمار يانعة ، وظل ظليل ونسيم عليل، إلا أنه ألفاها[4] مأوى لأسد الغضب ، ونمور الجهل ، وثعالب الغدر ، وخنازير الشره ، وكلاب الحرص ، وسباع الحمق ، وحيات الظلم ، وعقارب الحسد ؛ فنفى عنها هذه الآفات كلها وحصنها منها فصارت خيرا لا شر فيه .

فلما سمع أزدشير مقالة ابنه علم أنه معرض عن الملك ، زاهد فيه نابذ له ، فساءه ذلك ، ثم أقبل عليه ، فقال له : يا بابك إن الحكمة لا ترضى لمن اتصف بها أن يكون مربوبا مقهورا مع تمكنه من أن يكون ربا قاهرا .

فقال بابك : ما أجدر الملك السعيد بالصدق وأحراه بالإصابة ، ولكن إن أذن الملك السعيد ضربت له مثل الرب القاهر والمربوب المقهور .

فقال أزدشير : هات ما عندك من ذلك .

فقال بابك : ذكروا أن فيلا كان مكرما عند بعض الملوك وكان ربيبا أنيسا أنيسا ، وأنه تصيد لذلك الملك فيل وحشى ، فعسرت على السوّاس[5] رياضته وتعذر عليهم تأنيسه ، فرأوا أن يجعلوه مع ذلك الفيل الأنيس الأديب ليأنس به

---

(١) الأشباح ، مفردها الشبح : وهو الشخص .

(٢) السيب : العطاء والكرم والنوال .

(٣) الكارعة : التنابلة على الماء .

(٤) أى تعوده وآنسه .

(٥) السواس ، مفردها : سائس وهو معلم ومؤدب الدواب .

ويقتبس من أدبه ففعلوا ذلك به فازداد نفارا وتوحشا ، فبالغ السواس فى عقوبته، والتضييق عليه والتجويع له ؛ ليذل فنال منه الجهد ، وأن الفيل الربيب قال له يوما: لقد جنيت على نفسك شرا ، وأسأت النظر لها بجهلك ، ولو علمت ما يراد بك من الخير لم تفعل .

ولكنه كان يقال : العزة باب تحجب الألباب عن صواب الصواب .

وكان يقال : الجاهل ميت الأحياء لتهوره وفساد تصوره .

وكان يقال : لا تبح كرامتك غير طالبها كما لا تنكح كريمتك غير خاطبها .

فقال الفيل الوحشى للربيب : ما الذى يراد بى ؟ قال : يطيب علفك[١] ، ويستعذب موردك ، وينظف مسكنك ، ويوكل بك خدمة يكلأونك[٢] ، ويراعون شئونك ويجعل لبروزك أوقات معلومات منتظرة ، يحشد الناس لها ؛ فتجلل الديباج ويضرب بين يديك آلات تهيج الطرب ، وتبعث على الاختيال ، ثم تبرز مكرما معظما لا تعارضك دابة ، ولا تهب عليك للهون هابة.

فقال الفيل الوحشى للربيب : لأختبرن ما ذكرت لى ، فنزع عن توحشه ونفاره وتأتى لما يراد منه ، فكرم ونعم وخدم وعظم ، ولما أظل يوم الزينة بولغ فى تكرمته وتنظيفه ، وجلل بالديباج ، وشد على ظهره سرير مزين وصعد عليه المقاتلة عليهم الدروع والخوذ ، وبأيديهم عمد الحديد ، وركب على عنقه دارع[٣] بيده كلاب وألبست فنطسته الزرد[٤] ، وشد على طرفها قائم سيف كبير، وقبض سواسه على نابيه من عن يمين وشمال ، وبأيديهم عمد الحديد ، وعليهم الدروع، وضربت بين يديه الطبول والصنوج[٥] . وسار على تلك الحال حتى بلغ منه المراد ،

فلما عاد إلى مأواه قال لذلك الفيل الربيب : قد اختبرت حقيقة ما حدثتنى

---

(١) ما تأكله الدابة .

(٢) أى يحرسون لك مواضع طعامك .

(٣) أى من يرتدى الدرع .

(٤) الزرد : الدرع يتداخل بعضها فى بعض .

(٥) الصنوج ، مفردها الصنج : وهى آلة للطرب لها أوتار .

عنه ورأيت زيادات أحببت أن أسألك عنها .

قال : ما هى ؟ .

قال : ما كانت تلك الأثقال التى حملت على ظهرى ؟ .

قال الربيب : أولئك المقاتلة على سرير ومعهم آلات القتال .

قال : فما ذلك الذى سترت به فنطستى ، والذى صير على طرفها ، وما أراد القابضان على نابى والراكب على عنقى ؟ .

فقال له الربيب : أما الذى سترت به فنطستك فدرع تحصنها ؛ لأنها مقتل ، وأما الذى ربط إليها فسيف يضرب به فى العدو ، وأما القابضان على نابيك فإنهما يذبان عنك الأعداء ، أو يعيناك على الإقدام ، وأما الراكب على عنقك فيهديك الوجه الذى يراد منك سلوكه .

فقال الفيل الوحشى : لأمر ما طيب علفى واستعذب موردى ، ونظف بدنى وسكنى ، ونوّه باسمى وجُمّل ملبسى ، وإنى لأرى أمرا لا يقوم خيره بشره ، ولا يفى نفعه بضره ، وبعد فلأكونن من أحرص الحراص على الخلاص .

وأنه كان يقال : ليس العاقل من انقاد لشهواته وخدم سوى ذاته ،

وكان يقال : من عنى بغير نفسه فقد بسط عليها ضره واستنبط لها ضره ،

وكان يقال : إذا كانت الحاجة تستعبد المحتاج لمن احتاج إليه بقدر حاجته فالناس عبيد الدنيا وأعبدهم لها أحوجهم إليها .

وكان يقال : إذا كانت العبودية كناية عن خدمة المعبود والحاجة إليه ، فأعبد العبيد ثلاثة : الملك ، والمحب ، والمنعم عليه ؛ لاستيلاء العبودية على ظاهرهم وباطنهم، والملك أعبد الثلاثة ؛ وذلك لأن الرعية تستخدم باطن الملك وظاهره فى تدبيرها وتأديبها ، وصونها من عدوها وعونها على مصالحها ، وردع ظالمها ونصر مظلومها، وتأمين سبلها ، وسد ثغورها والإعداد لما ينعشها فى الجنوب[1]، ولما يحصنها فى الحروب ، وجباية[2] فضول أموالها وصرفها فى صلاح أحوالها ، وحسم أسباب هيجها ، وإزاحة علل فتنها وهرجها

---

(١) الجنوب مكان انقطع عنه المطر فيبست أرضه .

(٢) أى جمع وضم .

، هذا مع شدة حاجة الملك إلى رعيته فى صون نفسه وتنفيذ أمره وإمحاض نصحه ودفع عدوه ،

فلما سمع الفيل الربيب مقالة الوحشى ، تبين أنه أولى منه بالعزة والتهور وفساد التصور وقال : بحق قالت العلماء : الجهل يحجب العيان ويقلب الأعيان

وقالوا : لا يزال المخطىء مرجوا ما لم يخامره الإعجاب بخطئه ، فإذا أعجب حجب .

ثم قال للوحشى : إنى أكافئك على نصحك إياى ، وتبصيرك لى بأن أفتح لك باب الحيلة فى نجاتك ؛ لأنى أبصر بأخلاق الإنس وعاداتهم وأهدى إلى وجه الخلاص منه ، وسأتبعك وأكون خادما لك ما بقيت .

ثم إنهما اتفقا على أن يتظاهرا بالدَّخُول وهو داء يصيب الإبل والفيلة فى أعجازها ، فإذا قامت ارتعدت أفخاذها حتى تكاد أن تسقط ، فتعالج بالفصد[1] وتحمل على السير الهون .

فلما تظاهرا بذلك وسارع السواس إلى مداواتهما . وأخرجوهما إلى الصحراء فسيروهما ، فلما بَعُدَ الفيلان عن العمارة وأمكنتهما فرصة الهرب شدا فلحقا بالفيلة المتوحشة ، فهذا أيها الملك السعيد مثل ما ذكرت .

فلما وعى أزدشير مقالة ولده بابك أطرق مغموما متفكرا فى أمره ، وقد يئس من ما يريده منه ، ثم إنه نهض وأمر بابك باتباعه ، فاتبعه حتى أدخله بيوت أمواله ومستودعات ذخائره ، فجعل يريه إياها وينبهه على مزاياها ، حتى أتى على آخرها ثم أقبل عليه فقال له : يا بابك لمن تترك هذا ، تتركه لمن هو أحب إليك من نفسك وأحق بها منها ؟ .

فقال له بابك : إن أذن الملك السعيد ضربت له مثلا فيه جواب ما سألنى عنه. فقال له أزدشير : هات ما عندك من ذلك .

فقال بابك : ذكروا أن راعيا كان يرعى بقراً على أهل قرية فيحسن لبقرهم السراح والمراح ، فلبث بذلك برهة طويلة من الزمان ، وهم به مغتبطون وعليه مثنون ؛ لما يعرفونه من بركة سعيه وتثمير رعيه ، فكانوا لا يسألونه عن شىء من أمر بقرهم التى أسلموها إليه رضى به وطمأنينة إلى أمانته وكفايته .

---

(١) الفصد : شق العرق ليخرج منه الدم الفاسد .

وكان يقال : الموثوق مرموق ، والأمين بالمودة قمين[١] .

وكان يقال : الإحسان والأمانة مملقان ، بكل لسان نافقان ، عند كل إنسان .

قيل : وكان الراعى يأوى عند المقيل[٢] إلى صومعة[٣] راهب فيقيل فى ظلها، ويكثر التأوه والأنين لما يناله من النصب فيما يعانيه ، وكثر ذلك منه على الراهب إلى أن خامرته له رقة ، فاطلع عليه يوما فقال له : أيها الراعى مالى أسمعك تكثر الأنين والتأوه؟

فقال الراعى : ذلك لما أتجشمه[٤] من حفظ هذه البقرة ، والذب عنها وتتبع المراعى الخصيبة بها ، فأنا أقوم من ذلك بما يعجز عنه غيرى ، وأحمل على نفسى المشقات فى حصوله .

فقال له الراهب : وما الذى دعاك إلى الإضرار بنفسك وإصلاح سواها ونفسك أقرب إليك وأحق بسعيك ؟

فقال الراعى : إنى لو لم أفعل ذلك ما بلغت هذه البقرة من السمن والوفور ما ترى ، ولقد كانت يوم وليت أمرها قليلة العدد كثيرة العجف[٥] بكية[٦] الضروع، لا تزين فناء ولا تملأ إناء .

فقال له الراهب : لقد حدت عن مسألتى حيدة من لم يولها إقبالا ولم يلق لها بالا ، إنى إنما سألتك عن سبب حملك على نفسك لغيرها وإيثارك من سواها بخيرها ، فأخبرتنى بشديد عنائك وسديد اعتنائك ، فأخبرنى الآن عما أفادك حميد سعيك وسديد رعيك .

فقال الراعى : أفادنى الغنى بهذه البقر ؛ لأنى آكل من لحوم ما سقط منها ما شئت ، وأطعم ما شئت ، وأتصرف فى ألبانها وغير ذلك من منافعها تصرف المالكين ، وأنتجع بها من الأرض حيث شئت ، فهى على الحقيقة لى وبيدى .

---

(١) أى خليق وجدير .

(٢) وقت القيلولة (الظهيرة) .

(٣) المكان فى الجبل يسكنه الراهب بقصد الخلوة للعبادة .

(٤) أى أعانيه وأتكلفه .

(٥) العجف : الضعف والهزال .

(٦) أى قليلة اللبن .

obeikandl.com

فقال له الراهب : هكذا زعم راهب كان ذا بله[1] ثم صح عنده بطلان زعمه.

قال الراعى : أخبرنى عن ذلك .

فقال الراهب : إنه كان سائح مترهب فمر فى سياحته بدير كان حسن البناية، فتثلمت[2] حيطانه ، وهو بمكان طيب نزه[3] ، وبين يديه أرض أريضة فيحاء ذات ماء عذب ، وفى ذلك الدير نفر من ضعفاء الرهبان ومساكينهم ، فأعجبه الدير وأوطنه ، وكان قوى البدن جلدا معمارا ، فأصلح ما تثلم من جدران الدير، وعمر الأرض التى عنده فاحتفر سواقيها وأجرى ماءها ، وغرس فيها صنوف الأشجار، فدرت منافع الدير ، وقصده الرهبان فأوطنوه ، وسادهم ذلك السائح واتخذ العبيد والدواب ، وآلة عمارة الأرض ، واستضاف إلى أرض الدير ما جاورها، وغرس فيها من الكروم والزيتون واللوز شيئا كثيرا ، فعظمت المنافع وكثرت الجباية ورغب السائح فى جمع الدنيا ، واتخذ كنزا نفيسا فى أقرب مدة .

وكان يقال : المال كالماء فمن استكثر ولم يجعل له مسرب تسرب فيه على قدر الحاجة ـ غرق به .

وكان يقال : المواساة فى المال والجاه عوذة بقائهما .

ولما عامل الراهب السائح من عمر معه الدير بالحرمان ، واستأثر دونهم بالمال، أكثروا شكايتهم ، ففتحت القالة فيه ، واجترأ عليه من كان يهابه ، وأفضت الحال به إلى مكاشفته ، فجاهروه ودعوه إلى الإنصاف والمواساة فيما بين يديه .

فقال لهم : كيف أعطيكم مالى الذى كسبته بكدى واستفرغت فى تحصيله جهدى ؟ .

فقالوا : بل هو مال الله ولكل واحد منا فيه حق ، ولك الفضل علينا بتنميته وصونه .

فقال لهم : ستعلمون مال من هو ؟

---

(١) أى ذو ضعف فى العقل وعجز فى الرأى .

(٢) أى حدث بها خلل وتصدع .

(٣) أى حسن المنظر .

ولما جن عليه الليل أمر عبيده فعقروا ألف دالية ، وألف زيتونة ، وألف لوزة[١] ، فأصبحت مصرعة فى أشنع منظر ، فأتوا السائح فأخبروه بما حدث ، وهم لا يعلمون أنه هو الفاعل لذلك ، فزجرهم ، وقال لهم : إنه مالى فلا عليكم منه بقى أو ذهب ، وعلموا أنه عمله ، فثاروا إليه وأهانوه وضربوه ثم طردوه ، فخرج من الدير على الحالة التى دخله عليها .

فلما حصل بظاهر الدير سرح طرفه فيما كان عمره وغرسه ، فرأى منظرا رائعا ، فتنفس الصعداء تحسرا على ذهاب شبابه وقوته وريعان عمره فيما لم يجد فيه طائلا ، ثم كانت عاقبته إلى مزايلته والانسلال[٢] منه على حال مهولة وفاقة[٣] وضعف .

فقال : بحق قالت الحكماء : الدنيا سبيل تُعبر ولا تُعمر ، وممر سالك ، لا مقر بارك .

وقيل : الدنيا جسر من عبره باعتبار ؛ أفضى به إلى قرار ، ومن عبره باغترار ، أفضى به إلى دمار وتبار[٤] .

وقالوا : قريب سلبها من سلمها ، وخطفها من عطفها ، والعاقل من أهلها من استعد لحيلها ، وليس الاستعداد كذلك إلا للتأهب لبغيها المكتوم وفراقها المحتوم ، فالاستكثار منها نقيض ذلك .

وقالوا : إن الخروج من الدنيا ما لا تطيب به نفس ، ولكن قد تتهيأ الرياضة عليه باستشعار الزهد فى الفانى العاجل ، والاستكثار من العمل النافع فى الأجل

وقالت الحكماء : التنعم فى الدنيا يضاعف حسرة زوالها ، ويؤكد غصة[٥] اغتيالها .

---

(١) شجر مثمر من فصيلة الورديات شبيه بالمشمش .
(٢) الخروج على خفية وغفلة .
(٣) الحاجة والعوذ .
(٤) فناء وهلاك .
(٥) الغصة : الضيق والحزن والهم . أى زوالها فجاءة .

ثم إن الراهب السائح عاد إلى سياحته ، فقلما لبث أن هلك .

قيل : فلما وعى الراعى مقالة الراهب ، وفهم ما ضربه له من المثل ، واستبصر فيما تضمنه من الحكم ، قال له : جزيت من ناصح خيرا ، فخذ الآن فى التصريح بحالى عندك ، فقد أدبتنى كنايتك وهيأتنى للقبول ، وجَلَتْ عن فطنتى صداء غِرَّتى[١].

فقال الراهب للراعى : لقد أوضحت لك من غلطك ، فى دعوى ملك ما استرعيته وائتمنت عليه ، وكشفت لك ما ستر عنك ، من قبح حملك على نفسك لغيرها ، معتاضا عن ذلك أعواضا قليلة ، وأعراضا مستحيلة ، فاردد البقر إلى ملاكها ، واعمل فى خلاص نفسك من السباع الضارية ، والأفاعى الجارية ، والكلاب العاوية ، والعقبان[٢] المختلسة ، والشياطين الموسوسة ، والأشراك الخاتلة[٣] ، والسموم القاتلة لتنجو من البوار[٤] ، وتعلوا إلى عالم الأنوار .

قيل : فلما انتهى بابك إلى هذه الغاية من أمثاله ، أمسك عن القول ، وأطرق أبوه أزدشير مفكرا متأملا ما تصرف فيه ولده من المقال ، وضربه له من الأمثال ، ثم نهض مضطرب البال ، مضرم البلبال[٥] ، وخرج بابك من فوره فساح ، ولم يعلم أين طاح[٦] .

قال المؤلف عبد الله الفقير إليه الغنى به ـ محمد بن أبى محمد بن ظفر ـ رحمه الله تعالى ـ : والحمد لله على ما أنهيت بغيه ، وما أردت إلى نهيه ، وأنا أعوذ بالله من عذاب الإعذاب ، كما أعوذ به من حجاب الإعجاب ، واستكفيه عِوَل السؤال ؛ كما استعفيه من غَوْل الجواب[٧] ، واستدفع به فساد الخطاب كما استدفع كساد[٨] الصواب ، وأتوب إليه فهو رحيم تواب .

---

(١) الغرة : الغفلة وعدم الخبرة .

(٢) العقبان ، مفردها عقاب : وهو طائر من الجوارح قوى المخالب يصيد الجرذان والأرانب.

(٣) أى الخادعة . (٤) الهلاك .

(٥) شدة الهم والحزن . (٦) خرج وتاه .

(٧) الغول : الهلكة من حيث لا يدرى يعنى فساد الجواب .

(٨) أى إنحراف .